حول كتاب
الفكر السامي
« وصدور جزءيه الثالث والرابع »

مصنف هذا الكتاب هو العلامة سيدي محمد الحجوي الثعالبي وزير معارف المغرب الأقصى ومدرس العلوم العالية في جامع القرويين بفاس وأحد أعضاء مجمعنا العلمي . وقد كنا قرظنا الجزءين الأول والثاني من هذا الكتاب في مجلد السنة التاسعة (ص٥٠٦) وقلنا ان المصنف بنى كتابه على اربعة أرباع أو أجزاء :

(١) طور طفولة الفقه الاسلامي من بعثة النبي (ص) الى حين وفاته .

(٢) طور شبابه من عهد الخلفاء الراشدين الى آخر القرن الثاني .

(٣) طور كهولته الى آخر القرن الرابع .

(٤) طور شيخوخته وهرمه الى يوم الناس هذا .

وطريقة المؤلف في تأليفه انه يترجم للعلماء والفقهاء من أية فرقة كانوا بعد ان يأتي على مقدمة يذكر فيها نموذجاً من تاريخ فرقتهم ومختلف مقالاتهم ثم يستخرج من ثنايا التراجم تدرج الفقه وتطوره وتولد احكامه وتشعب مسائله مشيراً الى العجيب من أخبار الفقهاء ورجال الفرق قارناً كل خبر . بما يلائمه من المواعظ والعبر . وما يجب من الانتباه والحذر .

على هذا جرى في الربعين اوالجزءين الأولين . وعليه جرى في الجزءين الأخيرين (الثالث والرابع) . فالثالث في ٥٦ اصفحة وهو يتضمن وصف كهولة الفقه في القرنين الثالث والرابع والعوارض التي طرأت عليه فيهما . والمصنف — مع كونه مالكي المذهب — لم يتقيد بمذهبه ولا بعلماء فقهه بل عمم القول وأفاض في الكلام على جميع رجال المذاهب والفرق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الاسلامية كما قلنا . فكان كتابه اشبه بمعلمة فقهية يصح الرجوع اليها في كل ما يتعلق بهذا الموضوع ومن ثم كان خليقاً باقبال الفضلاء عليه والاستضاءة بنوره . وقد انتقد المصنف في هذا الجزء بعض فقهاء المذاهب الذين يرون نصوص أئمتهم أجدر بالاعتبار والأخذ من نصوص الشارع ! ! ! ولعل الأئمة رضي الله عنهم كانوا يحذرون أمثال هذا الغلو فكرهوا ان يكتب عنهم شيء من أقوالهم لأنه اذا كتب ومرت عليه السنون تحجّر وتقدّس . ومما ذكره في هذا الجزء ان تدخل الخلفاء بين الدين والفلسفة أضرهما معاً . ولو بقيت العلوم الدينية تسير في طريقها من دون ان تصطدم بالفلسفة لأزهرت الفلسفة وأثمرت الثمرات التي اجتنتها أوربا . ومثل ذلك (القياس) فان الفقهاء لو لم يقاوموه ويشنعوا على أنصاره لأفاد جداً في الترقيات العصرية . ومن مباحثه الممتعة : هل ان نصوص الشريعة وافية بما يلزم للبشر من الأحكام ؟ وهذا البحث والذي قبله وغيرهما من المباحث الكثيرة من أقوى العوامل في نشاط العقول وجعل الفقه الاسلامي مثمراً . لكن المصنف احياناً تغلب عليه طبيعة البيئة فيرى آراء لا تقوى على التمحيص مثل ما في ص ٣٥ من استدلاله برؤيا رآها على أن لله في كل مسألة حكماً شرعياً . وله في الصوفية والتصوف وكل ما له علاقة بهذا الموضوع كلام ونقول ممتعة جداً لعشاق هذا الفن . ومن فوائده انه كان في الاندلس في القرن الرابع للهجرة شورى وتراتيب دستورية جدا لو دامت وعرف المسلمون كيف ينتفعون بها . وفي هذا الجزء كثير من الابحاث التي لها علاقة بترقيات العصر غير ما ذكرنا وإن الاشارة اليها تخرجنا عن مسمى (التقريظ) الى مسمى (التلخيص) وقال المصنف في آخر هذا الجزء ان العلماء الى آخر القرن الرابع يسمّون (المتقدمين) وعلماء القرون التالية هم الذين يطلق عليهم اسم (المتأخرين) .

وفي الجزء الرابع سرد تراجم هؤلاء المتأخرين الى عصرنا هذا على طريقته في الاستطراد والاستنتاج الممتع : فوصف الحالة السياسية التي أدت الى انحطاط علم الفقه في المشرق والمغرب . وحرق الاسبانيين لنفائس مخطوطات الاندلس . وان ملك الموحدين (ابا يوسف يعقوب) لما رأى غلبة كتب الفروع على فقهاء زمانه وحيلولتها دون الاجتهاد حرقها وأمر بتصنيف كتب أحاديث الأحكام قال : وكان الفقهاء يعتمدون في ترجيح الأحكام الشرعية على الرؤى ومثل ذلك اعتمادهم على حساب الجمل كما فعل (ابن كمال باشا)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مذ أفتى السلطان سليماً بمحاربة الغوري أخذاً من القرآن بطريقة ذلك الحساب . وبمناسبة كلامه على اصلاح الازهر في العهد الأخير وصف المؤلف جامع القرويين في فاس وهو احد المدرسين فيه . وانه كان سعى في اصلاحه بمساعدة المستشرق الكبير الموسيو (مرسيي) لكن تدخل ذوي الأغراض حال دون ذلك الإصلاح وعطل تنفيذ مواد نظامه . بيد أنه اذا لم ينجح سعيه للإصلاح في ذلك المعهد العالي فقد نجح في المدارس الابتدائية والثانوية — ووصف لنا المؤلف فتنة الخلاف التي جرت بين العلماء والعامة في مسألة : (هل ان الكفار يعرفون الله ؟ ؟) وذلك في اوائل القرن الخامس للهجرة — ووصف لنا الوسائل التي ساعدت على انتشار الاسلام في صحراء افريقية وسودانها — وانه كان من عادة الأندلسيين إيذاء الفلاسفة وتضييق الخناق عليهم وذكر ان الإختصار في المصنفات الدينية استدعى إطالة الكلام في شرحها فضلت الافهام بين هذا الشرح وذاك الإختصار — وذكر ان الفقيه المحدث الورع سيدي رضوان الجنوي أبوه من (جنوه) وقد أسلم لبعض الاسباب (راجعها في ص١٠٣) ثم جاء المغرب فتزوج يهودية مسلمة ومن بين هذين الأبوين ولد سيدي رضوان الذي قال فيه الامام القصار (رضوان الرجل الصالح لو أدركه ابو نعيم لجعله في الحلية) وكانت وفاة سيدي رضوان سنة ٩٩١ هـ قال المؤلف : ومن فتاوى (محمد المرغني) المتوفى سنة (١٠٩٠ هـ) (أنه لا حرمة للجبانات التي تكون في داخل المدن بل يجوز نبشها وذلك لأن المدن حبس (أي وقف) على الأحياء) قال : ويعتقدون في المغرب ان قراءة تفسير البيضاوي تسبب موت السلطان ولذلك كانوا يحتالون على من يريد قراءته بشتى الوسائل — وذكر أنه يوجد من تاريخ ابن عساكر في خزانة المواسين بمراكش سبعة وعشرون جزءاً كباراً من تجزئة نيف وثلاثين جزء — وترجم المؤلف نفسه ترجمة استغرقت نحو خمس عشرة صفحة ضمنها فوائد شتى .

وختم الكتاب بكلام عام مهد السبيل فيه الى طرائق إصلاح الفقه الاسلامي فحقق موضوع الاجتهاد والتقليد والإختصار في وضع المصنفات الفقهية ووصف صعوبة فهم مسائل كتب الفقه المختصرة حتى أدى ذلك الى فشو الأمية في العامة وذكر من أصول فقه المالكي اصلاً لاعهد لنا به في المشرق سماه (العمل الفاسي) وخلاصته ان يحكم القاضي بما حكم به القضاة الذين كانوا قبله — وبحث في تتبع الرخص وتوحيد المذاهب ولزوم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وضع كتاب في الفقه على نمط المجلة العثمانية يتضمن من الأحكام الشرعية ما يلتحم بحاجة أبناء هذا العصر — ونصح بالخضوع لناموس تطور الزمان وتأثيره في تطوير الاحكام وذكر أمثلة توضح ما اراد من هذا التطور والتطوير . ومن هذه الأمثلة التصوير الشمسي والفرق بينه وبين نحت التماثيل وذكر محاورة في هذا الموضوع جرت له مذ كان في تونس مع رئيس وزرائها (ولعله يعني به خليل بوحاجب) — وتساءل هل الاسباب متيسرة لمن أراد الاجتهاد في زماننا ؟ وهنا بحث في ماطبع من الكتب المساعدة على الاجتهاد — الى غير ذلك من الابحاث الجليلة المرتبطة جد الارتباط بمصالح المسلمين في هذا العصر مما ينبغي دراسته والتأمل فيه وخاصة لمن يهمه نجاح الاصلاح الديني الاسلامي العملي لا النظري .

ومن طريف صنع المؤلف في خاتمة كتابه هذا أنه أتى على ذكر الانتقادات التي وجهها اليه علماء بلاده ثم عقب على كل نقد برده « تمثيلاً للحالة الفقهية والمناولات القلمية في افريقية الشمالية بالوقت الحاضر » وقد تخلل هذه المباحث الانتقادية مسألة خلاف علي ومعاوية رضي الله عنهما . وتفضيل المذهب الحنفي على غيره والسبب في ذلك مرونته وصلاحيته للتطور الكوني — وذكر لنا مسألة (لافتوى بمنع شيء اذا كانت هناك حاجة داعية الى إباحته) ومن هذا القبيل (عملية السيكورتاه في الأموال) وحاجة المسلمين اليها وان الجمود وعدم تجويز مثل هذا أضر بالمسلمين وجرأ الكماليين على ما فعلوا .

وبلي ذلك تقاريظ الكتاب وهي كثيرة ثم فهرست مفصل ثم الخطأ والصواب وما اكثر الخطأ في مطبوعات إخواننا المغاربة لكن اذا كان الخطأ في مطبوعاتهم كثيراً فان الصواب في آرائهم ومضامين مصنفاتهم اكثر لعمري .

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net